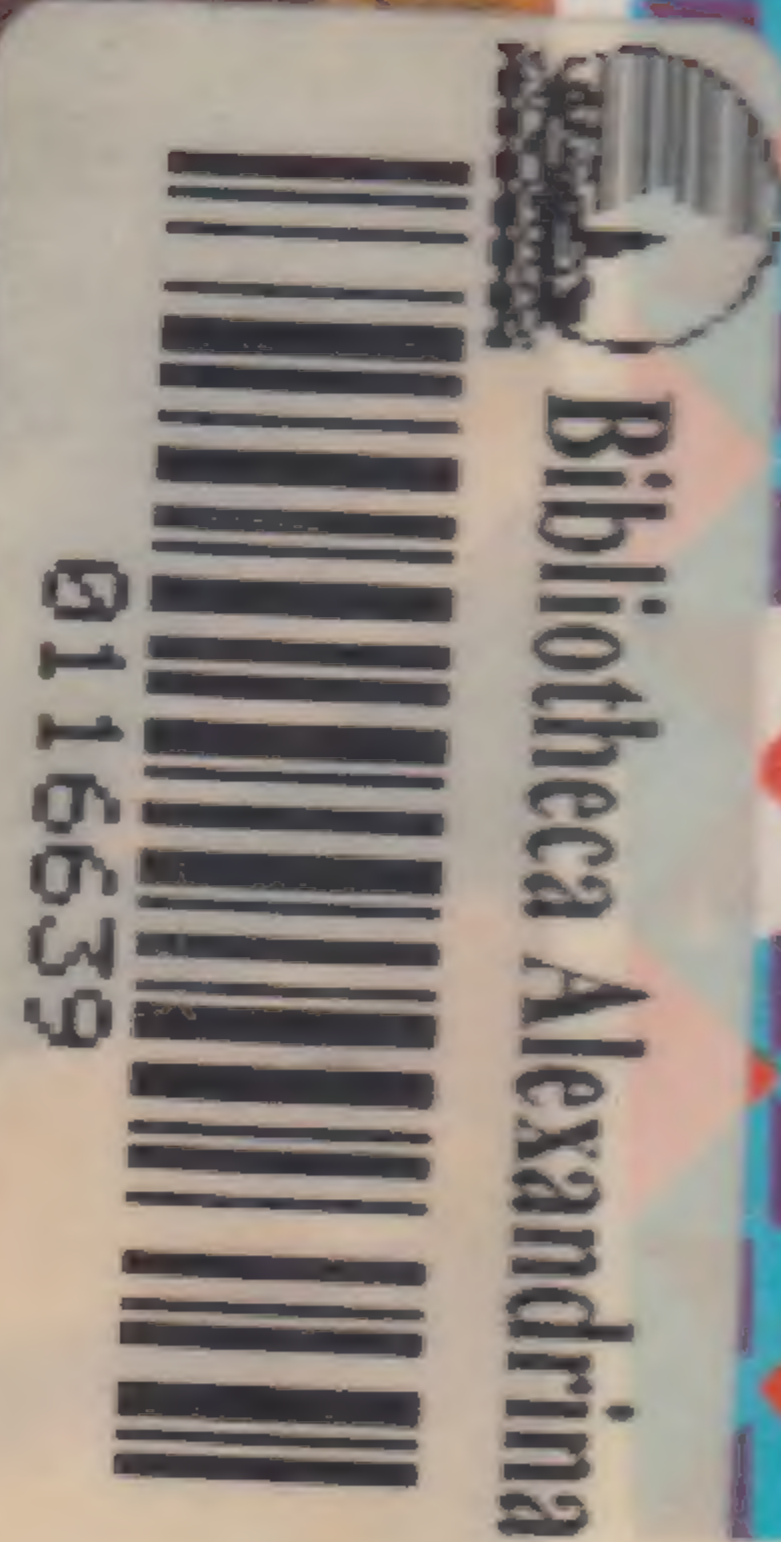


علماء
العرب



ابن خلدون

أبو علم الاجتماع



تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

مركز الأهرام
للترجمة والنشر



علماء
العرب

ابن خلدون

أبو علم الاجتماع

سليمان فياض

الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

جميع حقوق الطبع محفوظة
الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون : ٧٤٨٢٤٨ - تلکس : ٩٢٠٠٢ يوان



أَحِبُّوا بَعْضُكُمْ

غَادَرَ الصَّبِي « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » مَسْجِدَ الْقُبَّةِ الْجَامِعِ فِي
تُونِسَ ، مَعَ أَبِيهِ « مُحَمَّد » . وَاجْتَاَزَا مَعَ شَوَارِعَ الْمَدِينَةِ ، حَتَّى
بَلَّغَا شَارِعَ « ثُرَيَّةِ الْبَاي » ، وَدَخَلَا مَعَ بَيْتِ « آلِ نَحْلُدُون » .

كان بيتاً كالقصر . وكان في انتظارهما للغداء : أم عبد الرحمن ، وإخوته : محمد ، ويحيى ، وعُمر ، وموسى . والتفوا معاً حول المائدة .

والتفت الأب « محمد » قائلاً لبيه بسعادة :

— أُنحَوكم عبد الرحمن له صوت جميل . أنصت له الجميع ، وهو يقرأ آيات الله في مسجد القبة .

وابتسم « عبد الرحمن » ولم يقل شيئاً . وعاد الأب يقول لبيه :

— لا ينافس جمال صوت أخيكُم ، سوى جمال خطه ، وقوة ذاكرته ، وحفظه التام لكل قراءات القرآن السبع .

كان « يحيى » هو أكثر إخوة « عبد الرحمن » حُباً له . كان أصغر منه . وما كان يحبه فيه هو أنه لم يره غاضباً قط (أبداً) . ولم يره فرحاً بنجاح ، أو حزيناً لفشل . قال « يحيى » :

— سيكون لأخي عبد الرحمن شأن كبير في يوم من الأيام .

وتأثر الأب بما قاله « يحيى » ، وقال لبيه :

— هذا هُوَ الْحُبُّ يَا بُنَائِي . مَا قَالَ « يَحْيَى » عَنْ أُخِيهِ
هُوَ حُبٌّ لَهُ . فَتَذَكَّرُوا ذَلِكَ . أَجَبُوا بَعْضُكُمْ الْبَعْضَ . وَكُونُوا
يَدًا وَاحِدَةً فِي كُلِّ الظُّرُوفِ . وَتَذَكَّرُوا دَائِمًا : أَنَّ أَحَدًا لَنْ
يَأْخُذَ مِنَ الدُّنْيَا أَكْثَرَ مِمَّا قَدَّرَهُ اللَّهُ لَهُ .

آل خلدون

كَانَتْ عَائِلَةُ « آلِ خَلْدُونِ » عَائِلَةً نَبِيلَةً وَعَرِيقَةً وَمَرْمُوقَةً
فِي « تُونِس » . فِي الْقَرْنِ الْهَجْرِيِّ الْأَوَّلِ هَاجَرَ جَدُّهَا « خَالِدٌ »
مِنْ دِيَارِ « حَضَرَ مَوْت » (بِالْيَمَنِ) ، وَأَقَامَ مَعَ عَائِلَتِهِ فِي
« أَشْبِيلِيَّةَ » بِالْأَنْدَلُسِ . وَتَعَظِيمًا لِسَانِ « خَالِدِ » صَغَّرَ اسْمُهُ عَلَى
الطَّرِيقَةِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ ، فَقَالُوا : « خَلْدُونِ » . وَمَعَ مُرُورِ السِّنِينَ
صَارَتْ عَائِلَةُ « خَلْدُونِ » وَاحِدَةً مِنْ أَقْوَى وَأَكْبَرِ ثَلَاثِ عَائِلَاتِ
يَمَنِيَّةِ الْأَصْلِ فِي « أَشْبِيلِيَّةِ » . وَاشْتَهَرَ مِنْ رِجَالِ « آلِ خَلْدُونِ »
كَثِيرُونَ ، فِي مَجَالَاتِ الْفِكْرِ ، وَالْعِلْمِ ، وَالسِّيَاسَةِ . وَأَظْهَرُوا
بَسَالَةً (شَجَاعَةً) مُنْقَطَعَةً النَّظِيرِ فِي مَعْرَكَةِ « الزُّلَاقَةِ »
الشَّهِيرَةِ ، ضِدَّ الْفَرَنْجَةِ ، عَلَى عَهْدِ دَوْلَةِ « الْمُرَابِطِينَ » .

لَكِنْ « آلِ خَلْدُونِ » اضْطَرُّوا ، فِي النِّهَايَةِ ، إِلَى النِّزَاحِ عَنْ
« أَشْبِيلِيَّةِ » ، قَبْلَ قَرْنٍ وَاحِدٍ مِنْ مِيلَادِ « عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ

خَلْدُون . فلم يعد من جَدَوَى (فائدة) لبقائهم في « اشبيلية » تحت حُكْمِ الفِرْنَجَةِ ، فسَارَعُوا بِالرَّحِيلِ فِي أَوَاخِرِ عَهْدِ دَوْلَةِ « الموحِّدين » وآثَرُوا الإِقَامَةَ فِي مَدِينَةِ « ثُونَسَ » ، معَ جُمُوعٍ أُخْرَى مِنْ الْمُهَاجِرِينَ الْأَنْدَلُسِيِّينَ ، وَبَيْنَهُمْ ، وَمَعَهُمْ ، كَانَ حِرَفِيُّونَ ، وَمُزَارِعُونَ ، وَأَدَبَاءُ ، وَعُلَمَاءُ ، وَرِجَالُ فِكْرٍ ، وَسَاسِيَّةٍ ، وَقَادَةُ مُحَارِبُونَ .

اخترت العلم

وفي « ثُونَسَ » صَارَ « آلُ خَلْدُونِ » عَائِلَةً شَهِيرَةً ، تَتَمَتَّعُ بِشُهْرَةٍ رُوحِيَّةٍ كَبِيرَةٍ . حِينَ انصَرَفَ وَالِدُ « عَبْدِ الرَّحْمَنِ » عَنِ السِّيَاسَةِ ، وَتَفَرَّغَ لِلتَّارِيخِ ، وَلِللُّغَةِ . وَصَارَتْ لَهُ ، فِي مَنْزِلِهِ الْكَبِيرِ ، حَلَقَةٌ عِلْمِيَّةٌ وَأَدَبِيَّةٌ ، يَتَرَدَّدُ عَلَيْهَا الْأَدَبَاءُ وَالْعُلَمَاءُ مِنْ أَهْلِ « ثُونَسَ » ، وَيَفْدُ إِلَيْهَا الْأَدَبَاءُ وَالْعُلَمَاءُ مِنَ الْأَنْدَلُسِ ، وَالْمَغْرِبِ الْكَبِيرِ بِأَسْرِهِ .

وفي هَذِهِ الْحَلَقَةِ ، أَتِيحُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ وَإِخْوَتِهِ أَنْ يَتَلَقَّوْا تَعْلِيمًا مُمْتَازًا ، عَلَى أَيْدِي أَفْضَلِ الْعُلَمَاءِ وَالْأَدَبَاءِ . حَفِظَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ بِقِرَاءَاتِهِ السَّبْعِ ، وَحَفِظَ أَحَادِيثَ كِتَابِ « الْمُوْطَّأِ » لِلْإِمَامِ « مَالِكٍ » ، وَالكَثِيرَ مِنْ أَشْعَارِ الْعَرَبِ ، وَفِي

مقدمتها أشعار « المتنبى » . واكتسب من علماء الأندلس
والمغرب ، الوافدين على تونس ، معارف علوم الدنيا في زمانه :
المنطقية ، والفلسفية ، والرياضية والفلكية ، والطبيعية ، وأغرم
بقراءة كتاب « الأغاني » للأصفهاني . وحين سأله أبوه عن
سر حبه لهذا الكتاب ، قال لأبيه :

— لم أجد كتاباً أعرف منه أحوال العرب ، مثل هذا
الكتاب .

وسأل « عبد الرحمن » أباه ذات يوم :

— لِمَ لَمْ تَكُنْ يَا أَبِي ، مثل جدك ، وزيراً لبیت المال ، عند
سُلطان تونس ، أو مثل جدّي مستشاراً للسُلطان ، تُثوب عنه
في غيابه ، وتحكم مدينة تونس .

فضحك أبوه لسؤاله ، وقال له :

— يا عبد الرحمن . جدّي دَفَعَ حياته ثمناً لمناصرة السُلطان .
وجدك كان سيكون مؤرخاً عظيماً ، لولا أنه شُغل عن
التاريخ ، بكونه مستشاراً للسُلطان . وقد آثرت لنفسى ،
ولك ، وإخوتك ، طريق العلم . وبفضل هذا الاختيار ،
صارث لآل خلدون منزلة علمية ، دونها كل سُلطان .

قائد أفريقي

كانت مدينة « تونس » في القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر الميلادي ، موقعا تجاريا ، يُراقب عمليات العبور البحرية والبرية ، في البحر المتوسط ، وبين المغرب ، والمشرق الإسلاميين . وفيها كان يتجمع حجاج المغرب الكبير (تونس والجزائر والمغرب) ، والأندلس ، القادمين للحج ، والعائدين من الحج .

وكانت « تونس » آنذاك عاصمة لدولة تونس « الحفصية » وتزدان بعشرات القصور الفخمة ، والمدارس العديدة ، والمساجد الضخمة ، وفي مقدمتها « مسجد القبة » وكانت « تونس » أكثر أقاليم « تونس » تحصوبة ، وأوفرها مياهًا ، وفي ضواحيها ، على عهد « عبد الرحمن » ، كان يُزرع : الزيتون ، والحبوب ، والكروم ، والتين ، واللوز ، والرمان . وبالقرب منها كانت مدينة « قرطاجنة » التي خربها الرومان ، بعد هزيمتهم للقائد المغربي « هنيبال » الذي اجتاح في زمان الرومان اسبانيا ، وعبر جبال الألب ، واحتل سهول إيطاليا الشمالية ، ثم أعادوا بناءها .

وكثيراً ما كان « عبد الرحمن » يذهب إليها ، ويستعيد مع نفسه أجداد قائد إفريقي تحدى الرومان ، أو يذهب للتزهر في مزارع « تونس » وحدائقها ، وضواحيها .

عاشق المعرفة

كان « عبد الرحمن » قد بلغ من العمر سبعة عشر عاماً ، حين استولى السلطان « أبو الحسن » سلطان المغرب الأقصى ، على « تونس » ، وانتزعها من أيدي الحفصيين ، وكانوا له أصهاراً وأصدقاء . وكان « أبو الحسن » يحاول توحيد المغرب الكبير طوال ثمانية عشر عاماً مضت . ترك عاصمة ملكه « فاس » ، وانتزع جبل طارق من يد الفرنجة ، ثم زحف شرقاً ، واستولى على سائر المغرب الأوسط (الجزائر الآن) من أيدي « بني عبد الواد » ، ثم أكمل فتوحه باجتياحه لأفريقية ، أو المغرب الأدنى ، (تونس) الآن . كان « أبو الحسن » يحاول أن يعيد إلى المغرب الكبير وحدته الأولى التي كانت له على عهد المرابطين ، فالمؤحدين .

وبقدر ما هزت هذه الحرب العاصفة روح « عبد

الرحمن » ، بقدر ما أبهجَتْ عقله . فَمَعَ هَذَا السُّلْطَانِ جَاءَ
عَشْرَاتٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ ، الَّذِينَ يَشْكُلُونَ مَجْلِسَهُ
الْعِلْمِيِّ ، أَيْمًا نَزَلَ أَوْ ارْتَحَلَ .

وَاتَّسَعَتْ حَلَقَةُ الْعِلْمِ فِي يَتِ أَبِيهِ لِهَوْلَاءِ الْعُلَمَاءِ ، وَفِي
مَقْدَمَتِهِمُ اثْنَانِ ، صَارَا بَيْنَ صَفْوَةِ (خَيْرَةِ) أَسَاتِذَتِهِ : « ابْنُ عَبْدِ
الْمُهَيْمِنِ » عَالِمِ الدِّينِ وَالْأَدَبِ ، وَ « الْآبِلِيُّ » عَالِمِ الْمَنْطِقِ
وَالْفَلَسَفَةِ . وَأُسْلَمَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » ، عَاشِقُ الْمَعْرِفَةِ ، لَهُمَا كُلُّ
عَقْلِهِ ، وَجُلَّ (مَعْظَم) وَقْتِهِ . يَقْرَأُ عَلَيْهِمَا ، وَيَسْأَلُهُمَا ،
وَيَحَاوِرُهُمَا ، وَيَجِيبُهُمَا عَمَّا يَسْأَلَانِهِ عَنْهُ .

الوباء .. والجماعة

وَأَقَامَ « أَبُو الْحَسَنِ » فِي « تُونِس » ثَلَاثَ سِنَوَاتٍ ، يَدِيرُ
شُؤْنَهَا ، وَيُعِيدُ تَرْتِيبَ نِظَامِهَا . وَأَثْنَاءَ هَذِهِ الْإِقَامَةِ حَدَثَ وَبَاءُ
« الطَّاعُونِ » فِي الْعَامِ التَّالِيِ ، عَامِ تِسْعَةِ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ
هَجْرِيَّةٍ ، ثَمَانِيَةِ وَأَرْبَعِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ وَأَلْفِ مِيلَادِيَّةٍ .

اجْتَاخَ هَذَا الْوَبَاءُ مَعْظَمَ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ شَرْقًا وَغَرْبًا ، مِنْ
« سَمَرْقَنْدَ » إِلَى « الْمَغْرِبِ » ، وَعَصَفَ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَابِطَالِيَا ،



ومُعْظَمِ الْبِلَادِ الْأُورُوبِيَّةِ ، وصار يهلك في المدائنِ كُلِّ يَوْمٍ ،
وطَوَالَ عِدَّةِ أَشْهُرٍ ، الْعِشْرَاتُ ، وَالْمِائَاتُ ، وَالْأَلُوفُ . وَهَلَكَ
فِي هَذَا الْوَبَاءِ وَالذَّا « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » ، وَمُعْظَمُ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ
وَفَدُّوا بِصَحْبَةِ السُّلْطَانِ « أَبِي الْحَسَنِ » .

وَشَعَرَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » بِالْوَحْشَةِ وَالْوَحْدَةِ ، فَقَدْ خَلَأَ
عَالَمُهُ مَنْ أَحَبَّهُمْ : الْأَبْوَانِ ، وَالْعُلَمَاءُ . وَتَوَقَّضَتْ رَحْلَتُهُ مَعَ
الْعِلْمِ . وَانْطَوَى « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » عَلَى نَفْسِهِ عَاماً ، جَاءَ بَعْدَهُ عَامٌ
آخَرٌ مِلْءٌ بِالْأَحْزَانِ . فَهَاهُنَا الْمَجَاعَةُ بَعْدَ الْوَبَاءِ تَجْتَاخُ الْمَغْرِبَ
الْكَبِيرَ ، وَهَاهُنَا مَنْ بَقُوا أَحْيَاءَ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَبَيْنَهُمْ أَسَاتِذُهُ
« الْآبِلَى » ، يَرْحَلُونَ مَعَ خُرُوجِ السُّلْطَانِ « أَبِي الْحَسَنِ » مِنْ
« ثُونِسَ » .

وَفَكَرَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » أَنَّ مَجْرَى حَيَاتِهِ يَتَغَيَّرُ . وَقَالَ لِأَخِيهِ
الْكَبِيرِ « مُحَمَّدٍ » :

— أَفَكُرُ فِي الرِّجَالِ ، وَاللَّحَاقِ بِالْعُلَمَاءِ . فَلَا أُحِبُّ أَنْ
تَتَوَقَّفَ دِرَاسَتِي لِلْعِلْمِ .

فَقَالَ لَهُ أَخُوهُ « مُحَمَّدٌ » :

— لَا تَتَعَجَّلْ يَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ . وَانْتَظِرْ إِلَى أَنْ تَهْدَأَ الْأُمُورُ ،
فَالْمَغْرِبُ كُلُّهُ شَدِيدُ الْاضْطِرَابِ .

كاتب العلامة

بعد رجيل « أبي الحسن » عن « تونس » ، زحف الأمير
« الفضل » الحفصيّ عليها بجيشه ، واستردّ ملك أسرته . وجعل
« ابن تافراكين » وزيراً له . لكنّ هذا الوزير خائنه ، ودبر انقلاباً
ضدّه ، وعزّله ، وولّى مكانه أخاه الصغير ، ليظلّ ، هو
الوزير ، صاحب القرار والسلطة ، باسم السلطان الصغير .
وجاء يوماً إلى « عبد الرحمن » أخوه « محمد » ، وقال
له :

— ابن تافراكين طلبك ، دون سيّاك ، لتكون كاتب
العلامة (المقدمات البليغة لرسائل الدولة) في قصر السلطان .
ورأيت أن تقبل هذه الوظيفة ، حتى لا يصيب أحد من آل
نخلدون الأذى ، فهو وزير مستبدّ ، وأحوالنا الماليّة ليست على
مأيرام .

وقبل « عبد الرحمن » هذه الوظيفة كارهاً ، فهو لم ينل
ماناله من العلم ، لكنّي يكتّب ، بخطّ أنيق ، مقدمات بليغة ،
لرسائل قصر السلطان . وكان قد بلغ من العمر عشرين سنة .
ومرّ عام ، وشهور . وزحف ابن « الفضل » ، السلطان

المعزول ، عَلَى « ثُونَس » ، لِيَسْتَرِدَّ عَرْشَ أَبِيهِ ، وَكَانَ أَمِيرًا عَلَى « قُسْنطينة » (بالجزائر) . وَخَرَجَ « ابْنُ تَافَرَاكِين » لِلِقَائِهِ ، مَصْطَحِبًا مَعَهُ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » . وَهَزِمَ « ابْنُ تَافَرَاكِين » . فَقَرَّ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » لَيْلًا ، مِنْ الْمَعْسَكِ الْمَهْزُومِ ، وَاتَّجَعَ غَرْبًا فِي بِلَادِ « هَوَّارَة » ، وَاجْتَاَزَ بِلَادَ « أُبَّة » ، وَ« تَبَسَّة » . وَفِي « قَفْصَة » رَافِقَ صَدِيقًا قَدِيمًا لَهُ إِلَى مَدِينَةِ « بَسْكَرَة » (بالجزائر) .

وَكَانَ فِي جَيْهِ بَعْضُ الْمَالِ ، فَاسْتَقَرَّ إِلَى أَنْ يُنْقَضِيَ الشِّتَاءُ . وَرَاقَتْ لَهُ فَتَاةٌ مِنْ عَائِلَاتِ « بَسْكَرَة » ، فَاخْتَارَهَا زَوْجَةً لَهُ ، وَعَمَرُهُ ثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً .

وَكَانَ السُّلْطَانُ « أَبُو الْحَسَنِ » الْمُرِينِيُّ قَدْ تُوُفِّيَ ، وَانْفَرَطَتْ مِنْ بَعْدِهِ قُتُوحَاتُهُ خَارِجَ الْمَغْرِبِ ، وَوَلَّى عَرْشَ « فَاَس » مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ « أَبُو عِنَان » ، وَكَانَ شُجَاعًا طَمُوحًا ، وَأَرَادَ أَنْ يَسْتَرِدَّ الْمَدَائِنَ الَّتِي تَحَرَّرَتْ مِنَ التَّبَعِيَةِ لِفَاَسَ ، فَتَقَدَّمَ بِجَيْشِهِ ، وَاسْتَوْلَى عَلَى « تِلْمَسَان » . وَخَشِيَ الْأَمِيرُ « أَبُو عَبْدِ اللَّهِ » الْحَفْصِيُّ الْعَاقِبَةَ ، فَسَلَّمَ لَهُ طَائِعًا إِمَارَةً « بِتَجَايَةِ » .

وَجَاءَتِ الْأَنْخِبَارُ إِلَى « عَبْدِ الرَّحْمَنِ » بِأَنْ صَدِيقَهُ « مُحَمَّدُ ابْنُ أَبِي عُمَرَ » هُوَ حَاجِبُ (رَئِيسُ وَزَرَاءِ) « أَبِي عِنَان » ، فَقَالَ لَزَوْجَتِهِ الشَّابَّةَ :

— سألَ حَقُّ بِسُلْطَانِ الْمَغْرِبِ فِي « تِلْمَسَان » ، وَاسْتَبْقَيْنَ هُنَا
بَيْنَ أَهْلِكَ فِي « بَسْكَرَةِ » إِلَى أَنْ أَعُودَ إِلَيْكَ ، أَوْ أُرْسِلَ مِنْ يَأْتِي
بِكَ إِلَيَّ .

وَبَكَتِ زَوْجَتُهُ الشَّابَّةُ ، فَهَذَا هُوَ أَوَّلُ فِرَاقٍ .

إجازات علمية

قَدَّمَ الْحَاجِبُ صَاحِبَهُ الْفَتَى « عَبْدَ الرَّحْمَنِ » إِلَى السُّلْطَانِ
« أَبِي عَنَّان » ، قَائِلًا لَهُ فِي مَجْلِسِ الْعُلَمَاءِ الَّذِي يُحِيطُ بِهِ نَفْسُهُ :

— هَاهُوَ يَامَوْلَايَ عَالِمٌ شَابٌّ نَابِهٌ ، مِنْ آلِ خَلْدُونِ ،
وَأَسْمُهُ : عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ .

فَقَالَ لَهُ السُّلْطَانُ :

— مَرْحَبًا بِكَ مَعْنَا يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ . لَا تُنْسِيَ مَكْرَمَةَ أَبِيكَ
مَعَ الْعَالِمِ « عَبْدِ الْمُهَيْمِنِ » ، حِينَ آوَاهُ عِنْدَهُ ثَلَاثَةَ شُهُورٍ ،
وَأَخْفَاهُ ، عِنْدَمَا ثَارَتِ الْفِتْنَةُ فِي تُونِسَ ، ضِدَّ وَالِدِنَا « أَبِي
الْحَسَنِ » .

وَدَعَاهُ السُّلْطَانُ لِلْجُلُوسِ ، مَعَ الْعُلَمَاءِ ، وَالْمِشَارَكَةِ فِي

حديثهم ، وأعجبته فطنته ، فجعله في صُحبة حاجيه ، إلى أن يعودَ إلى « فاس » .

وفي « فاس » ، ضمَّ « أبو عنان » عبد الرحمن إلى المجلس العلمي ، فصارَ يشهد معه الصلوات ، ويشارك في المناقشات (المحاورات) . وعينه كاتباً للعلامة فقبلَ وظيفته كارهاً . وسارعَ بدعوة زوجته إليه ، فجاءت تحمِلُ على صدرها ابنه الأول : « زيد » .

وعادَ « عبد الرحمن » يستأنف ، في « فاس » ، ما انقطع من حياته . يلقى بها علماء المغرب والأندلس ، ويبحث عن حلقاتهم في كل مكان . وبينهم كان « ابن الصفار » إمام القراءات ، و« المقرئ » القاضي ، و« العلوي » المتفلسف ، و« البرجني » الكاتب . ونال منهم جميعاً إجازاتٍ علمية .

وكانت « فاس » ، آنذاك ، مدينة مزدهرة ، بأهل الحرف ، والتجار ، عامرةً بالمنازل الكبيرة ، والقصور المشيدة بالحجر والرَّخام ، والمزينة بالحُزف والزخارف ، وقد انتشر فيها الترف ، وأنس أهلها إلى الراحة والرخاء ، والثياب الحريرية ، والخيول البديعة ، والحلي الذهبية والفضية .

ولم إلى جانب « فاس » القديمة هذه ، كانت حركة البناء

لا تتوقّف يوماً ، لإنشاء « فاس » أخرى جديدة ، يعيش فيها الموظفون الكبار ، والعسكريون العظام ، ورجال المال ، وتجار الذهب .

زيارة تقود للسجن

وذهب « عبد الرحمن » ذات ليلة ، كعادته ، لزيارة صديقه القديم ، الأمير الحفصيّ ، سليل الأسرة الحفصية بتونس ، الأمير « أبو عبد الله » الذى تنازل طائعاً للسلطان « أبى عنان » عن عرش « بجاية » ، وصار محدّد الإقامة فى بيت كالفص الذهبى فى مدينة « فاس » . وكان « عبد الرحمن » يتعهّده بالرعاية والخدمة ، من موقع نفوذه فى قصر السلطان . وقال الأمير « أبو عبد الله » لعبد الرحمن :

— إننى لأشعر بعَمِيقِ الامتنان (الشكر) لك . ولا أدري كيف أرُدُّ لك معروفك معى ، سوى وعِدى لك ، بأن تكونَ حاجِباً (رئيس وزراء) لى ، إن عدتُ إلى عرش « بجاية » . وفُوجِئ « عبد الرحمن » بالأمير يُقدم له ورَقّة مكتوبة ، بها هذا الوعد الذى قطعه على نفسه . ومسَّ هذا الوعدُ وثرّاً

في قلب « عبد الرحمن » ، فقد كان كارهاً لوظيفته ، ككاتب
للعلامة ، في قصر السلطان « أبي عنان » .

وسعى الوشاة لدى السلطان بهذه العلاقة الحميمة ، بين
الأمير الأسير ، و « عبد الرحمن » ، فأمر بالقبض على الاثنين ،
وعذبتهما ، وألقى بهما في السجن ، وكان « عبد الرحمن » قد
بلغ من العمر تسعاً وعشرين سنة .

وأطلق السلطان سراح الأمير « أبو عبد الله » بعد حين ،
لكنه أبقى « عبد الرحمن » سجيناً ، لا تشفع لديه أشعاره
المتوسلة ، ولا تفلح عنده وساطة الشفعاء (الوسطاء) ، حتى
رق له قلب السلطان ، إثر قصيدة بعث بها إليه « عبد الرحمن »
بلغت عدة أبياتها مائتي بيت . ووعد السلطان بالإفراج عنه ،
لكن السلطان كان مريضاً ، منذ سبع سنوات ، وأسلم الروح ،
قبل أن يفى بوعدِهِ .

حرية بلا عمل

وآلت (صارت) السلطنة في « فاس » ، إلى ابنه الطفل
الصغير الأمير « السعيد » وكان الوزير « الحسن بن عمر » هو
الوصي عليه ، والمستبد بشؤون الدولة ، وقتل هذا الوزير منافسيه



من الوُزَرَاءِ ، وأُطْلِقَ سَرَاحَ «عَبْدِ الرَّحْمَنِ» ، مع سِوَاهُ من
المعتقلين ، ليتخذهم أَعْوَاناً لَهُ . لكن «عَبْدَ الرَّحْمَنِ» خَشِيَ
عَوَاقِبَ السِّيَاسَةِ مَعَهُ ، فَقَالَ لَهُ :

— إِنْ أُذِنَ لِي سَيِّدِي الْوَزِيرُ ، أَنْصَرِفْتُ عَنْ «فَاس» عَائِداً
بِأَهْلِي إِلَى تُونِس .

فَقَالَ لَهُ الْوَزِيرُ :

— بل سَتَبْقَى مَعْنَا يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ ، وَنَعَامُ لَكَ بِالْكَرَامَةِ
وَالْإِحْسَانِ ، وَتُعِذُّكَ بِمَا تَحْتَاجُهُ مِنَ الْمَالِ .

وَلَمْ يُعِدْ « عَبْدَ الرَّحْمَنِ » إِلَى وَظِيفَتِهِ ، فَكَتَمَ ضِيقَهُ ،
وَانْصَرَفَ زَمَنًا إِلَى طَلَبِ الْعِلْمِ ، حَتَّى ثَارَ « مَنْصُورُ ابْنِ
سَلِيمَانَ » عَلَى هَذَا الْوَزِيرِ ، وَقَتَلَهُ ، وَانْتَرَعَ لِنَفْسِهِ سُلْطَنَةً
الْمَغْرِبِ ، وَأَعَادَ « عَبْدَ الرَّحْمَنِ » إِلَى وَظِيفَتِهِ كَكَاتِبٍ لِلْعَلَامَةِ !!

العودة إلى الينابيع

وَكَانَ لِلسُّلْطَانِ « ابْنِ عِنَانَ » أَخٌ مُقِيمٌ بِالْأَنْدَلُسِ ، هُوَ « أَبُو
سَالِمٍ » . وَقَدِمَ هَذَا الْأَخُ إِلَى الْمَغْرِبِ ، لِيَسْتَرِدَّ بِالْحَرْبِ مُلْكَ
آبَائِهِ ، يُسَانِدُهُ فِي ذَلِكَ وَزِيرُهُ « ابْنُ مَرْزُوقٍ » وَدَعَا هَذَا الْوَزِيرُ
إِلَيْهِ « عَبْدَ الرَّحْمَنِ » وَقَالَ لَهُ :

— لَكَ فِي نُفُوسِ أَعْيَانِ الْمَغْرِبِ مَنْزِلَةٌ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ .
وَالسُّلْطَانُ يُكَلِّفُكَ بِدَعْوَةٍ هَوْلَاءِ الْأَعْيَانِ لِمُنَاصَرَتِهِ ، لَكِي يَدْخُلَ
مَدِينَةُ « فَاسٍ » فَاتِحًا لَهَا ، وَيُعِذُّكَ بِأَكْبَرِ الثَّوَابِ ، وَأَعْظَمِ
الْمَنْزَلَةِ ، إِذَا نَجَحْتَ فِي مُهِمَّتِكَ .

وَصَحِبَ « عَبْدَ الرَّحْمَنِ » مَعَهُ رَجُلًا مِنْ صَفْوَةِ (خَيْرِ)

أَصْحَابِ « أَبِي سَالِم » ، مُقْنِعاً نَفْسَهُ بِأَنَّ أَحْوَالَ الْمَغْرِبِ قَدْ
اِخْتَلَتْ ، وَأَنَّهَا سَتَصِيرُ لَا مَحَالَةَ (لَا مَفَرَّ) إِلَى « أَبِي سَالِم » .
وَنَجَحَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » فِي مَهْمَتِهِ ، وَجَلَسَ « أَبُو سَالِم »
سُلْطَانًا عَلَى عَرْشِ « فَاس » ، فَدَعَا إِلَيْهِ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » ، وَقَالَ
لَهُ :

— مِنْ الْآنِ ، أَنْتَ أَهْلٌ لثِقَتِي ، وَسَتَكُونُ فِي السُّلْطَانَةِ ،
فِي مَنْصِبِ « كَاتِبِ السَّر » .

وَنَهَضَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » سَعِيداً بِكِتَابَةِ رِسَائِلِ السُّلْطَانِ ،
مِنْ مَبْدِئِهَا إِلَى مَتْنِهَا ، فَأُخْذَتْ ثَوْرَةٌ فِي زَمَانِهِ ، فِي فَنِّ كِتَابَةِ
الرِّسَائِلِ ، فَقَدْ عَادَ بِهَا إِلَى أُسْلُوبِ الْكِتَابَةِ الْمُرْسَلِ ، الَّذِي كَانَ
لَهَا عَلَى يَدِ الْكُتَّابِ الْعَرَبِ الْعِظَامِ .

حسد ابن مرزوق

وَزَلَّ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » فِي هَذَا الْمَنْصِبِ قُرَابَةَ عَامَيْنِ ، حَتَّى
خَشِيَ الْوَزِيرُ « ابْنُ مَرْزُوق » عَلَى مَكَائِهِ مِنْهُ ، وَخَافَ أَنْ يَزْدَادَ
تَرْقِيَهُ عِنْدَ السُّلْطَانِ ، فَيُصْبِحَ لَهُ وَزِيرًا ، وَعِنْدَهُ أَثِيرًا
(مُفَضَّلًا) . وَوَقَعَ مَاخَشِيهِ « ابْنُ مَرْزُوق » ، حِينَ قَالَ
« أَبُو سَالِمٍ » لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ :

— بلغنا ياعبد الرحمن مدى ماأنت عليه من العلم
بالشريعة والفقه . ونعرف حرصك على الصدق والعدل .
ولذلك ستلى ، إلى جانب عمالك ، ديوان المظالم (العدل) .
فأنهض بها عنا ، كقاضٍ .

وكان الوزير « ابن مرزوق » حاضراً ، وكان أيضا فقيها ،
فحسد « عبد الرحمن » لفوزه دونه ، بوزارة « ديوان المظالم »
الذى لم يسنده سلطان لأحد سواه . فى تلك اللحظة ، عزم
« ابن مرزوق » على تدمير الخلاص من « عبد الرحمن »
بالوشايات ، والدسائس .

وحقق « ابن مرزوق » غرضه بعد حين ، فأبعد السلطان
« عبد الرحمن » عن مجلسه ، وقرب « ابن مرزوق » إليه ، ولم
ينقذ « عبد الرحمن » من شر « أبى سالم » سوى تمرّد أعيان
« فاس » عليه ، بزعامة الوزير « عمر بن عبد الله » ، وكان
زوجا لأخت « أبى سالم » ، وكبيراً لأمنائه . وانتهى هذا التمرّد
بخلع « أبى سالم » من السلطنة ، وتولية أخيه « تاشفين »
سلطاناً على عرش « فاس » . وكان « عبد الرحمن » قد بلغ من
العمر إحدى وثلاثين سنة .

الخروج من فاس

وكان الوزير « عمر » صديقاً لعبد الرحمن ، فبادر (سارع) « عبد الرحمن » بإعلان ولأئيه له ، فأقره هذا الوزير على كتابة السر ، وديوان المظالم ، بل وزاد في راتبه ، ومنحه أملاكاً من الأراضى والدور . ووثق « تاشفين » بعبد الرحمن ، وخشي الوزير « عمر » بدوره ، من « عبد الرحمن » ، فقد يصبح حاجباً للسلطان ، ويشغل مكانه ، على صغر سنه ، فراح يعرض عنه ، ويتنكر له ، ويتقده في عمله أمام السلطان .

وشعر « عبد الرحمن » بقرب وقوع الشر ، فرغب في الرجيل عن « فاس » ، خوفاً من خطر السجن ، أو القتل . فوسط الوزير « مسعود بن ماساي » لدى الوزير « عمر » لكي يقنعه بالإذن له في الرجيل عن « فاس » . ورحب الوزير « عمر » برجيله ، لكنه قال له :

— أذنّا لك في السفر ياعبد الرحمن ، إلى أي مكان . عدّا مكانين : تلمسان ، وثونس .

وفهم « عبد الرحمن » غرض الوزير من إبعاده عن هاتين المدينتين ، ففى « تلمسان » (بالجزائر) السلطان « أبو حمو »

عدوُّ سُلطانِ المغربِ ، وفي « ثونس » سلطانُ حَفْصِيّ ، يعادِي
هو الآخر سُلطانُ المغربِ ، وفي وجُودِ رجلٍ مثل « عبدِ
الرحمن » ، عندَ أحدهما ، خطرٌ مؤكَّدٌ على سُلطانِ المغربِ
ووزيرِهِ . وقال « عبدُ الرحمن » طائِعاً ، وواعِداً :

— إن أذن لي الوزيرُ سافرتُ إلى « غَرْناطَة » بالأندلسِ ،
بعيداً عنِ المغربِ كله .

وقبل الوزيرُ « عُمرُ » ماطلَبَهُ « عبدُ الرحمن » ، وزوَدَهُ
الوزيرُ « مسعودُ » بالمالِ . وأرسل « عبدُ الرحمن » زوجته
وأولاده إلى أحوالِهِم في « قُسْطِيطِينَة » ، إلى أن يَستَقِرَّ بِهِ الحالُ
في « غَرْناطَة » .

في قاعة الأسود

عَبَّرَ « عبدُ الرحمن » مضيقَ جبلِ طارق إلى الأندلسِ ،
وركبَ فرسَهُ في طريقِهِ إلى « غَرْناطَة » . وفوجيءَ بالأميرِ
« محمدِ الخامس » ووزيرِهِ « ابنِ الخطيبِ » يستقبلانِهِ خارجَ
« غَرْناطَة » مع كبارِ الفُرسَانِ . وكان « عبدُ الرحمن » ، قد
عَاوَنَهُ في إقْناعِ السُّلطانِ « أبي سالم » ، عِنْدَما كانَ لاجئاً في



« فاس » ، فسَاعَدَهُ بِجَيْشٍ لَكِنِّي يَسْتَرْجِعُ عَرْشَهُ فِي « غَرْنَاطَةَ » ،
مِمَّنْ تَمَرَّدُوا عَلَيْهِ ، وَخَلَعُوا طَاعَتَهُ .

وعاش « عبد الرحمن » قُرَابَةَ عَامٍ مُعَزَّزاً مُكْرَماً . يُشَارِكُ
الأمير ووزيرَه في مجالسهما ، ورحلات صيدهما ، ويخلو إلى
نفسه أوقاتاً في مَكْتَبَةِ « غَرْنَاطَةَ » العَامِرَةِ ، أو في التَّنَزُّهِ بَيْنَ
البساتين ومياه النوافير ، أو في الإِنْصَاتِ إِلَى أَغَانِي الغَرْنَاطِيِّينَ
وَأَشْعَارِهِمْ .

وطابت له الحَيَاةُ فِي « غَرْنَاطَةَ » ، فَكَتَبَ رِسَالَةً فِي الْمَنْطِقِ ،
وَشَرَحاً مُوجِزاً لِمَوْلاَفَاتِ « ابْنِ رُشْد » . ثُمَّ دَعَاهُ الأميرُ إِلَيْهِ ،
وَكَانَ جَالِساً فِي « قَاعَةِ الْأَسُودِ » بَيْنَ قَاعَاتِ قَصْرِ الْحَمراءِ
الْبَدِيعَةِ ، وَقَالَ لَهُ :

— إِنَّنِي بِحَاجَةٍ إِلَى مَعُونَتِكَ وَخِبرَتِكَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ .
سَأَعْهَدُ إِلَيْكَ بِمَهْمَةٍ دَقِيقَةٍ فِي « أَشْبِيلَةِ » ، لَدَى مَلِكِهَا « بَطْرُسِ
الرَّهْيَبِ » ، لَتَعْقِدَ بَيْنَنَا مُعَاهَدَةَ سَلَامٍ .

مع بطرس الرهيب

دَخَلَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » مَدِينَةَ « أَشْبِيلَةِ » . وَعَجِبَ لِأَنَّهُ لَمْ
يَشْعُرْ فِيهَا بِالْغُرْبَةِ . وَكَانَ الْحِرَاسُ يَصْحَبُونَهُ إِلَى قَصْرِ

« جِيرَالْد » . ولاحظَ في الطريقِ رُوعَةَ الأَينِيَّةِ التي تشهدُ على عَظَمَةِ أَجدَادِهِ العَرَبِ ، وأنَّ كَثِيراً من المُسْلِمِينَ لا يزالونَ يعيشونَ معَ الفَرِنجَةِ في « اشبِيلِيَّة » ، ولكنْ ، كموالِي (أَتباع) لهم . وشعرَ بالمرارةَ لِهجرةِ أَجدادِهِ هَذِهِ المَدِينَةَ السَّاحِرَةَ ، وبالحُزنَ لِحالِ المُسْلِمِينَ الَّذِي صاروا إِلَيهِ ، على شاطئِ نَهرِ الوادِي الكَبِيرِ ، يشتغلونَ ، مايزالونَ ، بِالثَّقَافَةِ ، وصنَّعِ العُطُورِ ، والمنسوجاتِ ، والآلاتِ الموسيقيةِ ، وسائرِ الحَرفِ الأُخرى .

وحيثما « عبدُ الرحمن » ملكَ « اشبِيلِيَّة » . وجَدَهُ كَبِيراً في السَّنِ ، ومتعباً ، وقَدَّمَ لَهُ هَدَايَا مَلِكِ « غَرْنَاطَةِ » : خيولَ عَرَبِيَّةً أَصِيلَةً ، مَطْعَمَةَ السَّرْجِ واللَّجْمِ . وأَخَذَ الطَّيِّبُ اليَهُودِي : « ابراهيمُ ابنُ زَرْزَر » يُترجمُ بَيْنَهُمَا ، وكانَ « عبدُ الرحمن » يَعْرِفُهُ عِنْدَمَا كانَ بِفَاسَ .

ورحبَ الملكُ بِالْفُرْصَةِ المُنَاحَةِ لِلسَّلَامِ . وكانَ بِحَاجَةٍ إِلَيهِ أَكْثَرُ من أَىِّ وَقْتٍ ، كنى يَفْرَغَ لِمُواجَهَةِ أُمراءِ إِماراتِ مَمْلَكَةِ « قَشْتَالَةِ » ، الَّذينَ تحالفوا ضِدَّهُ ، وَهُمُ أَغَوَاثُهُ ، معَ قَرْنَسَا ، وإِمارةِ « الأَرَجُون » . واتَّفَقَ الرَّجُلَانِ على مَعاهِدَةِ السَّلَامِ وَنُصُوصِهَا .

ودعاَ المَلِكُ بطرسُ « عبدَ الرحمن » لِيَبْقَى مَعَهُ في

« اشبيلية » ، زاعماً أنَّ بقاءه معه سيُسَهِّل الكثير من أمور العربِ عنده ، وفي الأندلس . وقال له :

— إذا قَبِلْتَ عرضي . سأعيدُ إليك كلَّ الأراضي والعقاراتِ التي كان يملكها آلُ خلدون في « اشبيلية » .

لكنَّ « عبد الرحمن » اعتذَرَ عن قبول العرضِ . فأهْلُ « غرناطة » بحاجةٍ إليه . وكان يحتقرُ في أعماقه هؤلاء الخوثة الذين يعملونَ عندَ الفرنجة . وقبِلَ الملكُ عُذْرَه ، وأهداهُ بغلةً لجامها من الذهب ، وسَرَّجها مُطعمَ بالذهب ، ومِهمارها من الذهب ، وحملة الهدايا إلى ملك « غرناطة » .

رسالة عبر البحر

فرحَ ملكُ « غرناطة » بنجاحِ مهمَّةِ سفيره « عبد الرحمن » وارتفعَ قدره عندَه لِرفضِهِ العملَ مع ملك « اشبيلية » ، ولأنَّه أهدى إليه هديته الخاصَّة به ، التي أهداها له « بطرسُ الرهيب » وكافاهُ فَمَنَحَهُ خَراجَ (ضرائب) قرية « البيرة » (الفيرا) ، ومايحيطُ بها من الأراضي المروية ، وكانت في أخصبِ مناطق « غرناطة » . وأرسلَ سفينةً لكى

تعودُ إليه بزوجه وأولاده من مدينة « قُسْنَطِينَة » ، فعاش معهم فترة سعيدة ، قصيرة ، من حياته العاصفة . وكانت « غُرْنَاطَة » تلعبُ ، آنذاك ، وهي التابعة ، دور الوصاية ، على مدينتي : مراكش ، وفاس ، القارقتين في الترف ، والصراعات .

لكن « عبد الرحمن » ، بعد عامين فقط ، سئمَ هذه الحياة المريحة ، وشعر معها بسأمٍ خفي ، أخذ يكبر في نفسه وعقله . وغدَّت مشاعره تلك مخاوفه من شكوك صديقه الوزير « ابن الخطيب » به ، لطول بقائه في « غُرْنَاطَة » . ولقربه الشديد من أميرها .

وحسَمَ « عبد الرحمن » أمره ذات ليلة ، حين جاءته الفرصة ، فقابل الأمير « محمداً الخامس » في قاعة الأسود ، وأطلعَه على رسالة وصلت إليه عبر البحر ، قائلاً :

— إنني أشكرك أيها الأمير لحسن ضيافتك ، وإكرامك لي ولأهلي . وقد آن للطائر المهاجر أن يعود إلى وطنه .

كانت الرسالة من صديقه القديم الأمير « أبو عبد الله » ، أمير « بجاية » ، وكان قد نجح في العودة إلى إمارته . وكان يدعوه إليه ، لكي يتسلم منصب الحاجب (رئيس الوزراء) في « بجاية » . وأذن له ملك « غُرْنَاطَة » ، أسفاً ، وأكرمه بالهدايا

والعطائاً . وأُخْفِيَ « ابنُ الخطيبِ » فرَحَهُ بِرَحِيلِهِ ، وتَظَاهَرَ
بِالْحُزْنِ لِفِرَاقِهِ . وَكَانَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعُمُرِ ثَلَاثًا
وِثْلَاثِينَ سَنَةً .

مطامع ابن العم

كَانَ يَوْمُ اسْتِقْبَالِ « عَبْدِ الرَّحْمَنِ » فِي « بَجَايَةِ » يَوْمًا
مَشْهُودًا ، خَارِجَ الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ هُوَ عَلَى فَرَسِهِ ، بِجَانِبِ الْأَمِيرِ .
وَقَالَ الْأَمِيرُ « أَبُو عَبْدِ اللَّهِ » لِلْجَمِيعِ :

— اَشْهَدُوا . مِنْ الْيَوْمِ ، صَارَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ خَلْدُونِ »
حَاجِبِي ، وَصَاحِبَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فِي بَجَايَةِ .

وَعَكَفَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » عَلَى تَدْيِيرِ أُمُورِ الْمَدِينَةِ . يَجْبِي
(يَجْمَعُ) لَهَا الضَّرَائِبَ بَدَهَاءٍ وَحَزْمَ ، وَيُخِمِدُ مَا فِيهَا مِنْ فِتْنٍ ،
وَيُخْطِبُ خُطْبَةَ الْجُمُعَةِ فِي جَامِعِ الْقَصْبَةِ ، وَيَدْرُسُ الْعِلْمَ لَطَالِبِهَا
وَعُلَمَائِهَا ، وَيَسْتَقْبِلُ حِينَئِذٍ الْأَمِيرَ . « أَبَا حَمَّو » أَمِيرَ تِلْمَسَانَ
وَصَهْرَ أَمِيرِ « بَجَايَةِ » .

لَكِنِ الْأَمِيرَ « أَبَا الْعَبَّاسِ » ، أَمِيرَ « قَسَنْطِينَةِ » ، وَابْنَ عَمِّ
أَمِيرِ « بَجَايَةِ » ، طَمِعَ فِي حُكْمِ « بَجَايَةِ » ، وَرَاحَ يُجَنِّدُ الْقَبَائِلَ



ضدَّ ابنَ عمِهِ . وكانت « بَجَايَةُ » مَدِينَةُ غَنِيَّةٍ وَنَشِيطَةً ، مُحَاطَةً
بسهلٍ خصبٍ ، مَزْرُوعٍ بِعِنَايَةٍ ، وَمَنِيعةَ الحَصُونِ ، وَتَصِلُ إِلَيْهَا
المواردُ من القبائلِ ، وَتجارِ الذهبِ والبضائعِ ، وَحَلَقَةٌ وَصِلَ بَيْنَ
افريقيا وأوربا ، وَبَيْنَ ثُونِسَ وَتِلِمسانَ . وَكانَ أَهْلُها خَلِيطاً من
المُسْلِمِينَ وَالْمَسِيحِيِّينَ ، وَالْمَغَارِبَةِ وَالْمَشَارِقَةِ وَالْأَنْدَلُسِيِّينَ ، وَالْبُدُو
وَالْحَضَرِ ، وَالْقَبَائِلَ الشَّتَّى ، وَيُعَارِضُونَ بَعْضَهُمُ الْبَعْضَ فِي كُلِّ
شَيْءٍ . وَلِذلِكَ قالَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » لائِنِهِ « زَيْدٌ » :

— الحربُ واقعةٌ لا مَحَالَةَ بينَ ابْنِي العَمِّ . فهذه المدينةُ
مُشِيرَةٌ بِغناها ، وتفرَّق أهلُها ، لمطامِعِ كُلِّ الأُمَرَاءِ من حَوْلِهَا .
ونَجَحَ « أبو العباس » في حُرْبِهِ ضِدَّ ابنِ عمه ، حينَ شَنَّ
هُجُومًا مَفَاجِئًا على جَيْشِهِ ، وَلَقِيَ الأَمِيرُ « أبو عبدِ الله »
مَصْرَعَهُ ، وهو يَلُودُ بِالْفِرَارِ .

ولم يجد « عبدُ الرحمن » مَفَرًا ، لِحِمَايَةِ المدينةِ من تَسْلِيمِهَا
لِلأَمِيرِ « أَبِي العَبَّاسِ » ، فَأَبْقَاهُ فِي مَنْصِبِهِ ، وظَلَّ « عبدُ
الرحمن » خَائِفًا مِنْهُ على نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ ، وَلِذَلِكَ سَارَعَ « عبدُ
الرحمن » بِالْفِرَارِ بِأَهْلِهِ لَيْلًا ، إِلَى مَدِينَةِ « بَسْكَرَةَ » ، فَأَمَرَ « أبو
العبَّاس » بِتَفْتِيشِ بُيُوتِ « آلِ خَلْدُونَ » فِي « بَجَايَةَ » ، فَلَمْ يَجِدْ
رِجَالَهُ بِهَا ذَخِيرَةً وَلَا أَمْوَالًا . وَغَضِبَ فَأَمَرَ بِاعْتِقَالِ أَخِيهِ
« يَحْيَى » ، وَكَانَ مُقِيمًا فِي بَلَدَةِ « بُوْتَةَ » (العِنَاب) بِالقَرَبِ مِنْ
« بَجَايَةَ » .

هزيمة ساحقة

كَانَ « عبدُ الرحمن » قَدْ بَلَغَ مِنَ العَمْرِ ثَمَانِي وَثَلَاثِينَ سَنَةً .
وَكَانَ حَزِينًا على مَصْرَعِ صَاحِبِهِ ، حينَ جَاءَهُ سَفِيرٌ مِنْ « أَبِي
حَمُو » ، أَمِيرِ « تَلْمَسَانَ » ، وَقَالَ لَهُ :

— الأمير « أبو حمّو » ، يُريدُ معاوَنَتَكَ في الثَّأْرِ لَصْهَرِهِ
الأمير القَتِيلِ ، وقد كَانَ صَدِيقاً لَكَ ، وَكُنْتَ حَاجِباً لَهُ .
وَلِذَلِكَ يُرِيدُكَ مَعَهُ ، حَاجِباً لَهُ ، فِي تِلْمَسَانِ .

وَكَانَ « أَبُو حَمَّو » ، قَدْ بَعَثَ بِجَيْشٍ لِلِاسْتِيلَاءِ عَلَى
« بَجَايَةَ » ، لَكِنْ « أَبَا الْعَبَّاسِ » هَزَمَهُ هَزِيمَةً مُنْكَرَةً ، وَكَانَ
« عَبْدُ الرَّحْمَنِ » يَعْرِفُ أَنَّ « أَبَا حَمَّو » يَرِيدُ الْإِسْتِعَاثَةَ بِهِ ،
لِتَحْرِيزِ قَبَائِلِ « بَجَايَةَ » ضِدَّ « أَبِي الْعَبَّاسِ » وَقَالَ « عَبْدُ
الرَّحْمَنِ » لِلسَّفِيرِ ، وَكَانَ أَخُوهُ « يَحْيَى » جَالِساً مَعَهُمَا :

— عَزَمْتُ عَلَى التَّفَرُّغِ لِلْعِلْمِ ، وَاعْتَزَلْتُ الْمَنَاصِبَ . وَهَاهُوَ
أَخِي « يَحْيَى » قَدْ نَجَحَ فِي الْفِرَارِ مِنْ « بُوْتَةَ » فَخُذْهُ مَعَكَ ،
فَهُوَ خَيْرٌ مِنْ يُرِيدُهُ الْأَمِيرُ لِلْحِجَايَةِ . وَسَوْفَ أُعِينُ أَمِيرَ تِلْمَسَانَ
بِجَيْشٍ مِنْ قَبَائِلِ « بَجَايَةَ » .

وَانصَرَفَ السَّفِيرُ مَعَ « يَحْيَى » . وَنَهَضَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ »
بِمَهْمَّتِهِ الْجَدِيدَةِ لِلثَّأْرِ لَصَدِيقِهِ . لَكِنْ جَيْشُهُ وَجَيْشُ « أَبِي حَمَّو »
هُزِمَا هَزِيمَةً سَاحِقَةً ، فَعَادَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » إِلَى « بَسْكَرَةَ » يُعَدُّ
لِجَوْلَةِ أُخْرَى .

جيش المطاردة

وَوَلَّى عَرْشَ « فَاَس » السَّلْطَان « أَبُو فَاَس » الْمُرَيْنِّي ،
وَخَرَجَ بِجَيْشِهِ لَغْزْوِ « تِلْمَسَانَ » فَوَجَدَ « عَبْدَ الرَّحْمَنِ » نَفْسَهُ
وَقَدْ وَقَعَ بَيْنَ نَارَيْنِ ، وَمُعْسَكْرَيْنِ ، فِي حَرْبٍ لَا غَرَضَ لَهُ مِنْهَا .
وَدَبَّرَ لِلْعَوْدَةِ إِلَى « غَرْنَاطَةَ » وَحِيدًا ، لَكِنْ سَرِيَّةٌ مِنْ جُنْدِ « أَبِي
فَاَس » لِحَقَّتْ بِهِ ، وَعَادَتْ مَعَهُ إِلَى « أَبِي فَاَس » فِي مُعْسَكْرِهِ
عَلَى مَشَارِفِ « تِلْمَسَانَ » ، فَقَالَ لَهُ :

— ظَنَّنَا أَنْ مَعَكَ وَدَائِعَ لِأَبِي حَمَّو ، وَرِسَالَةً حَمَلْتَهَا مَعَكَ
إِلَى أَمِيرِ « غَرْنَاطَةَ » . لَكِنْ مَا الَّذِي دَعَاكَ يَوْمًا لِلرَّحِيلِ عَنْ
فَاَس ، وَعَنْ خِدْمَةِ الْمُرَيْنِيِّينَ ؟

فَقَالَ لَهُ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » :

— الْخَوْفُ مِنَ الْوَزِيرِ « عَمْر » الَّذِي قَتَلْتُمُوهُ ، هُوَ الَّذِي
دَعَانِي لِلرَّحِيلِ آتِيذ .

وَتَشَفَّعَ رِجَالُ « أَبِي فَاَس » لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ ، بِحُسْنِ خِدْمَاتِهِ

السَّابِقَةَ لِلْمُرْتَبِينَ ، فَأُطْلِقَ سَرَّاحَهُ . فَذَهَبَ إِلَى رِبَاطِ أَبِي مَدِينِ
(مُلْجَأُ لِفُقَرَاءِ الصُّوفِيَّةِ) ، مُعَلِّناً تَفَرُّغَهُ لِلْعِبَادَةِ وَالْعِلْمِ .
وَجَاءَتْهُ الْأَخْبَارُ بِاجْتِيَا ح « أَبِي فَارِسَ » لِمَدِينَةِ « تِلْمَسَانَ » ،
وَفِرَارِ « أَبِي حَمَّو » بِجَيْشِهِ إِلَى الصَّحَرَاءِ . وَفُوجِيَءَ بِرَجَالِ
« أَبِي فَارِسَ » بِأَخْذُوتهِ مِنَ الرِّبَاطِ لِلِقَاءِ السُّلْطَانِ :
قَالَ لَهُ السُّلْطَانُ « أَبُو فَارِسَ » :

— اخترْتُكَ دُونَ سِيَوَاكَ ، لَكِي تُجَنِّدَ جَيْشاً مِنَ الْقَبَائِلِ ،
وَتُطَارِدَ بِهِ « أَبَا حَمَّو » . وَعَلَيْكَ أَنْ تُبْرِهِنَ عَلَى وَلَائِكَ لَنَا ،
وَمَعَكَ قَادَةُ جَيْشِنَا .

وَلَمْ يَجِدْ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » مَفْراً مِنَ التَّنْفِيذِ ، فَجَنَّدَ جَيْشاً ،
هَزَمَ بِهِ جَيْشَ « أَبَا حَمَّو » ، وَنَجَّى « أَبَا حَمَّو » بِنَفْسِهِ ، وَحِيداً
فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ ، وَقَدْ تَشَرَّدَ أَهْلُهُ ، وَتَفَرَّقَ أَغْوَاثُهُ . وَعَادَ « عَبْدُ
الرَّحْمَنِ » إِلَى « تِلْمَسَانَ » ، فَشَكَرَهُ السُّلْطَانُ ، وَأَذِنَ لَهُ فِي
الْعُودَةِ إِلَى أَهْلِهِ فِي « بَسْكَرَةِ » . لَكِنْ أَمِيرَهَا لَمْ يُخَفِ عَنْهُ
خَشْيَتُهُ مِنْهُ ، وَكَانَ لَهُ صَدِيقاً ، فَصَحِبَ أَهْلَهُ ، وَذَهَبَ بِهِمْ إِلَى
حِمَايَةِ « أَبِي فَارِسَ » فِي « تِلْمَسَانَ » .

عودة الفتن

في الطريق ، جاء إليه الخبر ب وفاة « أبي فارس » . فعَدَلَ بأهله إلى « فاس » ، فقد أدرك أن « أبا حمو » سيعود إلى « تلمسان » ، وأن عليه أن ينجو بنفسه وأهله ، من انتقام « أبي حمو » ، لكن أشقياء من « بنى يغمور » انقضوا على « عبد الرحمن » وأهله ، ونهبوا متاعه وماله ، وهرب حراسه على خيولهم إلى جبل « دبدو » . فسار بمن معه إلى الجبل في حالة يرثى لها ، تحت حرارة الشمس الصحراوية . وصحبه الحراس إلى « فاس » . وعوضه الوزير « ابن غازی » عما أصابه ، فعاش عالماً ، موفور الثراء ، إلى أن بلغ أربعاً وأربعين سنة .

لكن الفتن عادت مرة أخرى تحت سماء « فاس » . يُخلع سلطان ، ويؤلى سلطان ، ويُقبض على « عبد الرحمن » ويُطلق سراحه ، لغير سبب في الحالين .. وجلس « عبد الرحمن » يفكر في غده . وقال لزوجته وابنه « زيد » :

— الآن أدرك أن قصور المغرب كلها قد سُدَّت في وجهي . وأن كل الأمراء صاروا في شك من أمري . ولا مفر لي من الرحيل إلى « غرناطة » ، فابقوا في « فاس » إلى أن أدعوكم إلي .

عُد إلى عدوك

ونَزَلَ «عَبْدُ الرَّحْمَنِ» ، لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ ، ضَيْفًا عَلَى أَمِيرِ «غَرْنَاطَةِ» ، لَكِنْ سُلْطَانُ «فَاسَ» الْجَدِيدَ ، أَرْسَلَ فِي أَثَرِهِ ، يَطْلُبُ مِنْ أَمِيرِهَا إِعَادَتَهُ إِلَى «فَاسَ» ، فَأَبَى أَمِيرُ «غَرْنَاطَةِ» الِاسْتِجَابَةَ لَطَلْبِ السُّلْطَانِ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِتَوَعُّدِهِ بِالْحَرْبِ ، إِنْ لَمْ يَخْرِجْهُ مِنَ الْأَنْدَلُسِ ، إِلَى أَيِّ مَكَانٍ آخَرَ ، وَلِيَكُنْ هَذَا الْمَكَانُ هُوَ «تِلْمَسَانَ» ، دُونَ سِوَاهَا .

وَأَدْرَكَ «عَبْدُ الرَّحْمَنِ» أَنَّ سُلْطَانَ «فَاسَ» يَخْشَى عَلَى عَرْشِهِ مِنْهُ ، وَهُوَ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَيُرِيدُ الْخِلَاصَ مِنْهُ بِإِرْسَالِهِ إِلَى عَدُوِّهِ «أَبِي حَمَّو» . وَخَشِيَ عَلَى أَهْلِهِ فِي «فَاسَ» مِنْ سُلْطَانِ «فَاسَ» ، فَقَبِلَ الْعُودَةَ وَحِيدًا إِلَى «تِلْمَسَانَ» ، لِيُنْقِذَ أَمِيرَ «غَرْنَاطَةِ» مِنَ الْحَرَجِ ، وَأَهْلَهُ مِنَ الْإِثْقَامِ .

برهن على إخلاصك

حِينَ وَطِئَتْ قَدَمَاهُ مِينَاءَ «هُنَيْنَ» أَرْسَلَ إِلَى أَخِيهِ «يَحْيَى» ، وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنَّهُ كَانَ مَا يَزَالُ يَعْمَلُ حَاجِبًا لِأَبِي حَمَّو فِي «تِلْمَسَانَ» ، وَإِلَى أَغْيَانِ «تِلْمَسَانَ» ، طَالِبًا شَفَاعَتَهُمْ

لَدَيْهِ ، وَإِذْنُهُ لَهُ بِالْمَثُولِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، طَالِباً الْأَمَانَ ، لَكِي يَنْتَزِعَ
لَهُ ، بَدَهَائِهِ ، عَرْشَ « بَجَايَةَ » ، فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ .

وَاسْتَقَرَّ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » فِي « تِلْمَسَانَ » ، وَقَدِمَ إِلَيْهِ أَهْلُهُ
مِنْ « فَاسَ » ، وَتَظَاهَرَ « أَبُو حَمُو » بِقَبُولِ إِعْلَانِ « عَبْدِ
الرَّحْمَنِ » ، اعْتِزَالَهُ لِلسِّيَاسَةِ ، وَانْقِطَاعَهُ لِلْعِلْمِ ، حَتَّى دَعَاهُ
إِلَيْهِ ، وَقَالَ لَهُ :

— عَفَوْتُ عَنْكَ ، وَأُرِيدُكَ ، الْآنَ ، أَنْ تُبْرِهِنَ عَلَيَّ وَلَأَيْتَكَ
لِي ، بِدَعْوَةِ الْقَبَائِلِ إِلَى نُصْرَتِي .

مع بني هلال

تَظَاهَرَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » بِالْقَبُولِ ، وَغَادَرَ « تِلْمَسَانَ » ،
وَاخْتَارَ جِهَةً نَائِيَةً ، جَنُوبِيَّ الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ ، حَيْثُ مَنَازِلُ
أَصْدِقَائِهِ مِنْ « بَنِي عَرِيفٍ » .

وَجَلَسَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » إِلَى أُعْيَانِ « بَنِي عَرِيفٍ » فِي قَلْعَةٍ
« بَنِي سَلَامَةَ » (تَاوْغَزُوت) ، فِي بِلَادِ « تُوجِينَ » (بِمَقَاطِعَةِ
وَهْرَانَ) . وَقَالَ لَهُمْ :

— صِرْتُ إِلَى أَسْوَأِ حَالٍ . وَأَجِدُنِي فِي مَرْمَى السُّهَامِ مِنْ

كُلُّ الْأَمْرَاءِ ، وَلَا أَرِيدُ الْآنَ سِوَى الْفَرَاغِ لِلْعِلْمِ ، وَاللَّجْوِ إِلَى
حَمَايَتِكُمْ .

وَأَخَذَتِ النَّخْوَةُ (المروءة) رجال « بني عَرِيف » ، فَبَعَثُوا
لَأَبِي حَمَّو ، يَطْلُبُونَ عَفْوَهُ عَنْ « عَبْدِ الرَّحْمَنِ » لِمُخَالَفَتِهِ لِأَمْرِهِ ،
وَالِإِذْنَ لِأَسْرَتِهِ لِكَيْ تَلْحَقَ بِهِ ، وَوَعَدُوهُ بِنُصْرَتِهِ إِنْ هُوَ قَبِلَ
رَجَاءَهُمْ . وَقَالَ « أَبُو حَمَّو » لِيُحْيَى :

— فَعَلَهَا أُخُوكَ . فَمَنْ يَقْدِرُ عَلَى رَفْضِ رَجَاءِ بَنِي
عَرِيفَ . وَوَرَاءَهُمْ عَشَائِرُ (أُسْرُ) « الدَّوَاوِدَةِ » ، وَعَشَائِرُ
« رِيَّاح » ، وَهُمْ أَعَزُّ قَبَائِلِ بَنِي هَلَالٍ ، وَأَكْثَرُهُمْ نَفْرًا
(جَمْعًا) .

فَقَالَ لَهُ « يَحْيَى » :

— أَبْهَا الْأَمِيرِ . اْمْنَحْهُ عَفْوَكَ . وَأَكْرِمْهُ بِأَهْلِهِ . فَاللَّهُ قَدْ
اخْتَارَهُ لِلْعِلْمِ لَا لِلسِّيَاسَةِ .

خبرة العمر

فِي الْقَلْعَةِ ، نَعِمَ (تَمَتَّعَ) « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » بِالْأَمْنِ ،
وَالِاسْتِقْرَارِ ، وَالْهُدُوءِ ، يَرْقُبُ فِي اللَّيْلِ الْقَمَرَ وَنُجُومَ السَّمَاءِ ،

وَيُنْصِتُ إِلَى عَزِيفِ (صَوْتِ) الرِّيحِ ؛ وَيَسْمَعُ فِي النَّهَارِ صَهِيلَ
الْحَيْلِ ، وَيَرَى بِحَارَ الصَّحَرَاءِ ، وَقِمَمَ الْجِبَالِ ، وَهُوَ جَالِسٌ
وَحِيداً مَعَ كُتُبِهِ ، وَدَفَاتِرِهِ ، وَرِيشَتِهِ ، وَمِخْبَرَتِهِ ، يُفَكِّرُ فِي
أَحْوَالِ الْأُمَمِ ، وَتَقَلُّبَاتِ الدُّوَلِ ، وَتَشَابُهِ الْأَحْدَاثِ فِي
الصَّحَارَى وَالْوُدْيَانِ ، وَالْبَوَادِي وَالْحَوَاضِرِ .

وَطَوَالَ خَمْسَةِ أَشْهُرٍ فَقَطْ ، كَانَ قَدْ كَتَبَ سِتْمِائَةَ وَسَبْعاً
وِثْمَانِينَ صَفْحَةً . وَضَعَ فِيهَا خَبَرَ رُبْعِ قَرْنٍ قَضَاهُ فِي السِّيَاسَةِ ،
وِخْدَمَةِ الْقُصُورِ ، وَمَنَاوِرَاتِ الْأُمَرَاءِ وَالسَّلَاطِينِ . وَاهْتَدَى إِلَى
الْقَوَائِنِ الْاجْتِمَاعِيَةِ الْمُحْتُمَةِ ، وَالْمُتَكَرِّرَةِ ، لَشُؤْنِ الْاجْتِمَاعِ
الْبَشَرِيِّ . وَعَثَرَ عَلَى الْمُنْهَجِ وَالرُّؤْيَا لِتَارِيخِ مُوسُوعِيِّ كَبِيرِ ،
عَنْ أُمَمِ الْأَرْضِ فِي عَصْرِهِ ، وَإِلَى زَمَانِهِ . وَكَتَبَ « عَبْدُ
الرَّحْمَنِ » عَلَى غِلَافِ صَفْحَاتِهِ عُنْوَاناً مُتَوَاضِعاً : « الْمَقْدَمَةُ فِي
فَضْلِ التَّارِيخِ » ، وَقُدِّرَ لِهَذِهِ الْمَقْدَمَةِ أَنْ تَكُونَ وَاحِدَةً مِنْ أَشْهُرِ
كُتُبِ الدُّنْيَا ، وَأَنْ تَحْمِلَ بَعْدَ قُرُونٍ عُنْوَاناً : « مُقْدَمَةُ ابْنِ
خَلْدُونِ » .

وَفِي السَّنَوَاتِ الْأَرْبَعِ التَّالِيَةِ ، أَنْجَزَ « ابْنُ خَلْدُونِ » أَجْزَاءَ
تَارِيخِهِ فِي كِتَابِهِ الْمَوْسُوعِيِّ : « الْعِبَرُ وَدِيْوَانُ الْمَبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ » ،
مُسْتَعِيناً بِدَفَاتِرِهِ الْخَاصَّةِ ، مُفْتَقِداً الْكَثِيرَ مِنَ الْمَرَاجِعِ ، وَكَتَبَ
التَّارِيخَ .



لكل شيء قانون

وجلسَ « عبد الرحمن » ليلاً ، مع ابنه « زيد » ، وقال له :

— هذه هي مُقَدِّمَتِي لدراسة التاريخ . اقرأها بعناية . فلم يسبقني أحدٌ إلى مثلها . لم أفعل فيها مافعله غيري من المؤرخين . لم أتوقف عند وصف ظواهر التاريخ ، أو الدعوة إلى مبادئ ومعتقدات ، أو إلى مدينة فاضلة ، فعلت ما هو أجل وأعظم . درستُ الظواهر الاجتماعية في تاريخ البشر ، وحللتها ، واكتشفت قوانينها المطردة ، التي تحكم تطوّر هذه الظواهر ، وتحكم في مدى الاستقرار البشري ، في أيّ مكان . فقال له « زيد » :

— فعلت إذن مافعله العلماء مع ظواهر الطبيعة ، والكائنات الحية ، في علوم الكيمياء ، والحياة ، والحيوان ، ووظائف الأعضاء .

فقال له أبوه :

— أصبت التشبيه يازيد . ذلك هو مافعلته تماماً ، لكي

أَصِيلَ إِلَى قَوَائِنَ حَاكِمِيَّةٍ ، لِلْإِجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ ، لَا تَشِيدُ عَنْ
الْقَوَائِنِ الْمِمَائِلَةِ ، لِظَوَاهِرِ الْكُونِ بِأَسْرِهِ .

وَصَمَّتْ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » بُرْهَةً . ثُمَّ قَالَ لَزَيْد :

— لَكُنِّي يَا بُنَى ، مَا زِلْتُ بِحَاجَةٍ إِلَى الْمَرَاجِعِ وَالْكِتَابِ ،
لِأَسْتَكْمِلَ أَجْزَاءَ كِتَابِي فِي التَّارِيخِ : « الْعَبْرُ وَدِيَوَانُ الْمَبْتَدَأِ
وَالْخَبَرِ » وَأَعْرِفُ أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ ، فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ ، أَعْرِفُهُ مُنْذُ
صِبَايَ : « مَكْتَبَةُ ثُونِس » .

وَلَمْ يَتَرَدَّدْ « ابْنُ خَلْدُون » . أَمْسَكَ بِقَلَمِهِ ، وَجَلَسَ يَكْتُبُ
رِسَالَةً إِلَى « أَبِي الْعَبَّاسِ » ، وَكَانَ قَدْ صَارَ سُلْطَانًا عَلَى
« ثُونِس » يَطْلُبُ فِيهَا الْعَفْوَ عَنْهُ ، وَيُعْلِنُ اعْتِرَازَهُ لِلْسِّيَاسَةِ ،
وَتَفَرُّغَهُ لِلْعِلْمِ ، وَإِنْجَازَهُ لِمَقْدَمَتِهِ وَمَعْظَمِ تَارِيخِهِ ، وَحَاجَتَهُ إِلَى
مَكْتَبَةِ « ثُونِس » ، وَبَعَثَ بِرِسَالَتِهِ مَعَ رَسُولٍ طَارَ بِهَا عَلَى ظَهْرِ
جَوَادٍ ، وَجَلَسَ يَتَرَقَّبُ (يَنْتَظِرُ) رَدَّ السُّلْطَانِ .

لَا مَهْرَبَ سِوَى الْهَرَبِ

عَادَ الرَّسُولُ إِلَى « ابْنِ خَلْدُون » بَعْدَ أَسَابِيْعَ ، وَمَعَهُ رِسَالَةٌ
تَحْمِلُ عَفْوَ السُّلْطَانِ ، وَتَأْذِنَ لَهُ فِي الْعُودَةِ إِلَى ثُونِسَ . فَسَارَعَ

بمغادرة ديار « بنى عريف » ، تاركاً أهله في رعايتهم إلى حين ،
وصحبه الفرسان في اجتيازه للصحرَاء ، حتى دخل على « أبى
العباس » وسط جيشه ، في سرادقه ، قُرب مدينة « سوسة » .

ورحب « أبو العباس » بابن خلدون ، واستشاره لفوره
في إخماد ثورة ، فأشار عليه بالرأى السديد (الصواب) . ووفر
له نائب السلطان في « تونس » الراحة ، ومنحه معاشاً سخياً
(كبيراً) ، فبعث بمن يأتي بأسرته من ديار « بنى عريف » .

كان « ابنُ خلدون » قد بلغ من العمر اثنتين وخمسين
سنة ، حين أتم تاريخه في مكتبة « تونس » ، وفي حفل مشهود ،
رفع « ابنُ خلدون » مقدمته وتاريخه إلى السلطان . وظن أنه قد
أغفى إلى الأبد من أمور السياسة والحرب ، في المغرب كله ،
لكن « أبا العباس » عاد للاستعانة به ، في حملة حربية ، ومهام
وزارية ، لم يكذ يفرغ منها حتى عزم على قرارٍ لارجعة فيه :
الهرب من تونس ، بل من المغرب بأسره ، لبدأ حياة جديدة ،
لا حاجة بأحد فيها لمثله ، في سياسة أو حرب . ووجد سبباً
للهرب : الخروج إلى الحج ، وكانت عينه الحفية على القاهرة ،
وقد تذكر كلمات « المقرئ » له عنها : « مَنْ لَمْ يَرَ الْقَاهِرَةَ
لَمْ يَرِ عِزَّ الْإِسْلَامِ » .

حاضرة الدنيا

دَخَلَ « ابْنُ خَلْدُون » مَدِينَةَ الاسْكَندَرِيَّةِ ، فِي يَوْمِ عِيدِ
فِطْرِ ، وَتَجَوَّلَ بِهَا شَهْرًا ، ثُمَّ ارْتَحَلَ جَنُوبًا إِلَى الْقَاهِرَةِ . وَهَالَتْهُ
الْقَاهِرَةُ . مَا هُوَ فِي حَاضِرَةِ الدُّنْيَا فِي زَمَانِهِ ، وَرَاعَتْهُ كَثْرَةُ
الْخَلْقِ ، وَالْبَسَاتِينِ وَالْمَدَارِسُ ، وَالْمُسْتَشْفَيَاتُ ، وَالْقُصُورُ ،
وَالْأَهْرَامَاتُ ، وَأَبُو الْهَوَلِ ، وَالْعِمَائِرُ الْمُخْتَلِفَةُ الطَّرِيزِ وَالْعُصُورِ ،
وَتُكَايَا الصُّوفِيَّةِ ، وَوَقْرَةُ الْعُلَمَاءِ وَالْفَنَانِينَ وَالْأَطِبَّاءِ ، وَتَرَامِي
الْمَزَارِعِ الشَّاسِعَةِ وَرَاءَ الْأَفْقِ ، أَيْنَمَا نَظَرَ . وَهَمَسَ « ابْنُ
خَلْدُون » : « نَعَمْ . هُنَا قَلْعَةُ الْإِسْلَامِ الْحَصِينَةُ لِلْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ . وَهُنَا الْبَقَاءُ إِلَى نِهَايَةِ الْعُمُرِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » .

عَلَى عَرْشِ مِصْرَ ، كَانَ يَجْلِسُ آنَذَاكَ ، السُّلْطَانُ « الظَّاهِرُ
بَرْقُوق » ، أَحَدُ الْمَمَالِكِ الْبُرْجِيَّةِ الْعِظَامِ ، قَبْلَ دُخُولِ « ابْنِ
خَلْدُونِ » بِعَشْرَةِ أَيَّامَ ، وَقَدَّرَ لَابْنِ خَلْدُونِ أَنْ يَعِيشَ زَمَانَهُ ،
وَيَرَى رِعَايَتَهُ لِلْعُلُومِ وَالْفُنُونِ ، وَإِنْشَاءَهُ لِلْمَدَارِسِ
وَالْمُسْتَشْفَيَاتِ ، وَإِغْدَاقَهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ وَالْفَنَانِينَ . وَكَانَتْ مِصْرُ
فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ أَغْنَى بِلَادِ الْأَرْضِ ، فِيهِ الْمِعْبَرُ وَالطَّرِيقُ بَيْنَ
الْبَحْرَيْنِ : الْأَحْمَرِ ، وَالْمَتَوَسِّطِ ، وَهِيَ الْمِعْبَرُ وَالطَّرِيقُ ، بَيْنَ :
الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَالشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ .

مرحباً بك

وتسابق علماء مصر وطلابها ، للترحيب بأبن خلدون ،
فقد سبقه إليهم تاريخه ومقدمته ، وبلغتهم مدى علمه في الفقه
والحديث ، واللغة والأدب ، وفنون الكتابة . وتخلق حوله
الطلاب في حلقة العلم في رواق المغاربة بساحة الأزهر .
وأعجب به الأمير « الطنبغا الجوباني » ، فقدمه إلى السلطان
« الظاهر برفوق » ، قائلاً :

— هذا يامولاي هو عالم المغرب بأسره ، جاء للإقامة في
ظل عدلك وبرك .

كان العام هو العام الرابع والثمانين وسبعماية للهجرة ،
الثاني والثمانين وثلاثمائة وألف للميلاد ، حين دخل « ابن
خلدون » مدينة القاهرة . ولم يمض عليه سوى عامين ، حتى
أخذ السلطان يعينه في وظائف التدريس والقضاء ، أنا بمدارس :
القمحية ، والصالحية ، وأنا في منصب قاضي قضاة مصر ،
بصفته قاضي قضاة المالكية ؛ وأنا مديراً لخانقاه (تكية) ببيرس
الصوفية . وصار له في القاهرة منزلان كبيران : أحدهما في « بين
القصرين » ، والآخر في جزيرة « الروضة » على شاطئ النيل .



كان يَحْيَا آمناً ، لا يُعَكِّرُ صَفْوَه ، إلا صَغَائِرُ بَعْضِ
الموظفين والفقهاء ، بالسَّعَايات والوشايات ، لكنَّ بَيْتَه ظلَّ آمناً
لا يُفْتَش ، وحياته وادعة لا تُهَدِّد ، وراتبه جارياً لا يَنْقَطِع ، إن
بقي في عَمَلٍ أو عُزِلَ عَنْهُ ، كى يُولَى غَيْرَه ، أو تُرِكَ بلا عَمَلٍ
إلى حين .

وأربعُ حوادثٍ كُبرى ، مرَّ بها « ابنُ خلدون » في حياته بالقاهرة ، وفي الفترة القصيرة التي قضاها بالشَّام : حين استعدَّ لا استقبالِ أهله بالقاهرة ، وحين شارك مكرها في عزل السلطان ، وحين زار فلسطين ، وحين لقي « تيمورلنك » بالشَّام .

الحنّة الكبرى

استعان « ابنُ خلدون » بالسلطان « برقوق » لُيساعده في مجيء أهله إليه من « تونس » ، فكُتِبَ سلطانُ مصرَ إلى سلطانِ تونس . طالباً منه ، السماحَ لأهلِ « ابنِ خلدون » باللحاقِ به في مصرَ ، وقال له في رسالته :

« إنني بحاجة إلى خدَماتِ ابنِ خلدون العلميّة ، وقد آثر الإقامة في مصرَ ، ولا يليقُ بسلطانٍ من سلاطين المسلمين ، أن يحولَ دونَ اجتماعِ شملِ الأسرة ، في أيّ وطنٍ من أوطان الإسلام . »

واستجابَ سلطانُ تونسَ لسلطانِ مصرَ ، فركبَ أُسْرُهُ « ابنُ خلدون » سفينةً متوجّهةً إلى الاسكندرية .

كان الوقتُ شتاءً ، والبحرُ هائجَ الأمواجِ ، والريحُ عاصفةً ، ففرقتِ السفينةُ بمنَ عليها ، وهى على وشكِ دُخولِ الميناءِ ، وابتلعَ الماءُ أفرادَ أُسرةِ « ابنِ خلدون » جميعاً ، وماله ، ومتاعه ، وكتبه ، وثقافتِ الأمواجِ كلَّ شيءٍ .

وانطوى « ابنُ خلدون » على نفسه حزيناً ، ومشى بينَ الناسِ مكتئبَ النفسِ ، وكانتِ الوشَاياتُ به قد أثمرتُ لدى السلطانِ ، فعزله من منصبِ القضاء ، وأُسندَ إليه منصبُ التدريسِ للفقهِ المالِكِيِّ فى المدرسةِ الظاهريةِ البرقوقيةِ .

وكان « ابنُ خلدون » فى حالةٍ من الاكتئابِ ، لاتجعله يوثقُ علاقتهُ بِمُديرِ هذهِ المدرسةِ ، فسعى لدى السلطانِ ، فأعفاهُ أيضاً من هذا المنصبِ ، لكنه ظلَّ يُجرى عليه راتبه . ولم يُنجِهِه من ميحنته سيوى خروجه للحج .

الغضب والعفو

وحَدَّثتْ فى الشامِ فتنةٌ قادها « يلبغا الناصرى » . وانتهت هذهِ الثورةُ بِخلعِ العلماءِ فى مصرَ ، للسلطانِ الظاهرِ « برقوق » عن عرشِ مصرَ . وشاركَ « ابنُ خلدون » مكرها فى هذا الخلعِ .

وتمكن السلطان « برقوق » من العودة إلى عرش مصر ،
فجمع العلماء ، وعائبهم ، فاعتذر « ابن خلدون » عن نفسه
وعنهم ، بقوله :

— أكرهنا على التوقيع الأمير « منطاش » ، وهددنا في
أرواحنا وأرزاقنا ، زاعماً لنا أنك تستعين في قتال المسلمين ، بغير
المسلمين .

وظل « برقوق » غاضباً زمناً عليه ، وعلى العلماء ، ثم عفا
عنهم ، وأعاد إليهم رواتبهم ، بل وأعاد « ابن خلدون » إلى
منصب القضاء . وكان قد بلغ من العمر سبعين سنة . ولم تمض
سوى شهر حتى توفي « الظاهر برقوق » ، وولى عرش مصر
من بعده ، ابنه « الناصر فرج » .

هذا الزى المغربى

واقتربت أعياد الميلاد عام ألف وأربعمائة ميلادية ، فتوجه
« ابن خلدون » إلى زيارة بيت المقدس ، وشاهد كنائسها ،
وصلى في المسجد الأقصى ، وعند صخرة القبة ، وزار بيت
لحم ، والخليل ، وغزة ، وعاد ليكتب مشاهدته في وصف

دقيق ، في كتابه « التعريف بأبن خلدون ورحلته شرقاً
وغرباً » ، والذي جعله ذيلاً (خاتمة) لكتاب « العبر » .

ولم يكذ يستقر بمصر ، حتى عُزل من منصبه كقاضٍ
للْقضاة ، بسبب دسائس منافسه « ابن الخلال » ، فعاد
لتدريس الفقه والحديث . آنذاك دعاه السلطان « الناصر » إليه ،
وقال له :

— يا ابن خلدون . الناس يأخذون عليك ، حرصك على
زيك المغربي هذا . وللعلماء في مصر زى خاص بهم ، شارك
أبى في تصميمه بنفسه . فكف عني وعنك استنكارهم لهذا
الزى .

فقال له « ابن خلدون » .

— يامولاي . العبد عند الله بقلبه وعمله . والمسلم بقوله
وسلوكه . وقد ألفت زى هذا والفنى . والإسلام لا يفرق بين
الناس بأزيائهم ، ولا ألوانهم .

فقال له السلطان غير راض عنه .

— كما تشاء يا ابن خلدون . كما تشاء .

بغلة تيمورلنك

وجاءت الأتباء إلى مصر ، بانقضاض « تيمورلنك »
بجيوشه على الشام ، واحتلاله لحلب ، وزحفه إلى دمشق ،
فسارع السلطان « الناصر » إلى الخروج بجيوشه ، لصد غارات
التتار ، ومعه علماء مصر ، وبينهم « ابن خلدون » .

واشتبك جند مصر مع جيش التتار ، في معارك صغيرة ،
خارج دمشق ، وبدأت مفاوضات الصلح بين الفريقين . لكن
« الناصر فرج » سارع بمغادرة معسكره ، عائداً إلى مصر ،
ليواجه مؤامرة من بعض الأمراء ، لخلعه عن عرش مصر .

ودعى العلماء لمقابلة « تيمورلنك » في معسكره ،
والتفاوض معه على الأمان لأهل دمشق . ولم يجد بينهم « ابن
خلدون » ، نعت إثر انصرافهم في طلبه . وصحبه نائبه « شاه
ملك » إليه ، فقدم له « ابن خلدون » مصحفاً ، وسجادة
للصلاة . فقبلهما .

سأله « تيمورلنك » طويلاً عن أحوال المغرب ، واستكتبه
صفحات عن جغرافية المغرب وتاريخه ، فأدرك عزمه على غزو
المغرب يوماً ، واعتذر له بحاجته إلى كتبه ، وهي في مصر ،



فَأَذِنَ لَهُ بِالسَّفَرِ ، وَالْعُودَةِ إِلَيْهِ ، وَمَعَهُ هَذِهِ الْكُتُبُ . وَأَهْدَاهُ
بَغْلَةً ، مَالَيْتَ أَنْ اشْتَرَاهَا مِنْهُ لِيُعْطِيَهُ مَالًا ، فِي مُقَابِلِهَا .

وَفِي طَرِيقِ عُودَتِهِ إِلَى مِصْرَ ، أَغَارَتْ عَلَيْهِ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ
جَمَاعَةٌ مِنْ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ ، نَهَبَتْ كُلُّ مَامِعَهُمْ ، وَتَرَكَتْهُمْ يَمْشُونَ
بِلَا نِعَالٍ ، وَلَا مَالٍ ، وَلَا ثِيَابٍ تُذَكِّرُ ، إِلَى أَنْ أَسْعَفَهُمْ بَعْضُ
أَعْرَابٍ سَيْنَاءَ بِالثِّيَابِ ، وَالنِّعَالِ ، وَبَعْضِ الْمَالِ .

وإِثْرَ وَصُولِهِ إِلَى مِصْرَ ، سَارَعَ بِالْكِتَابَةِ إِلَى سُلْطَانِ
الْمَغْرِبِ ، يَحْذَرُهُ مِنْ نَوَايَا تَيْمُورَلْنَكِ ، وَسَلَّمْ ثَمَنَ الْبَغْلَةِ لِبَيْتِ
الْمَالِ فِي مِصْرَ ، حَتَّى لَا يَظُنَّ أَحَدٌ أَنَّ « تَيْمُورًا » قَدْ رَشَاهُ .



لَمْ يَضَعْ أَحَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْغَرْبِ لِبَنَاتِ جَدِيدَةٍ ، فِي عِلْمِ
الْاجْتِمَاعِ ، وَفَلَسَفَةِ التَّارِيخِ ، سِوَى الْعَالِمِ « أَوْجِيست
كُونْت » ، فِي مُتَنَصِّفِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ ، أَيْ بَعْدَ « ابْنِ
خَلْدُون » بِأَرْبَعَةِ قُرُونٍ وَنِصْفِ قَرْنٍ ، وَظَنَّ حِينَ مَرَجٍ بَيْنَ
خَصَادِ كُلِّ سَابِقِيهِ ، أَنَّهُ هُوَ مَنْشِئُ عِلْمِ الْاجْتِمَاعِ . وَأَعَادَ إِلَيْهِ
الْفَضْلَ عُلَمَاءُ غَرْبِيَّوْنَ ، وَبَيْنَهُمْ : « كُولُوزِيو » ، وَ « لُودْفِيج
جَمِيلُوفْتش » ، وَ « فَاَرْد » وَ « شِيمِيث » الَّذِي يَقُولُ : « إِنْ
الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ وَضَعُوا أَسَاسَ عِلْمِ الْاجْتِمَاعِ مِنْ جَدِيدٍ ، لَوْ كَانُوا

قد اطلعوا على « مُقَدِّمَةِ ابن خلدون » في حينها ، واستعاضوا بكل الحقائق التي كان قد اكتشفها ، لتقدّموا بهذا العلم الجديد ، بسرعة أعظم مما تقدّموا به فعلاً .



وفي منتصف القرن التاسع عشر ، طُبِعَت « مقدمة ابن خلدون » مرتين ، مرة في القاهرة ، ومرة في باريس ، وكانت طبعة باريس تُنقصُ فصلاً ورد في طبعة مصر ، وتزيد أربعة عشر فصلاً لم ترد في طبعة مصر ، وجمع الدكتور « علي عبد الواحد وافي » الطبعتين ، وحققهما ، في طبعة صدرت بالقاهرة .



في فجر اليوم الأول من شهر رمضان ، عام سبعمائة واثنين وثلاثين للهجرة ، ألف وثلاثمائة وإحدى وثلاثين للميلاد ، وُلِدَ « عبد الرحمن بن خلدون » .

وفي فجر اليوم السادس والعشرين من شهر رمضان ، عام ثمانمائة وثمان للهجرة ، ألف وأربعمائة وستة للميلاد ، لقي « عبد الرحمن بن خلدون » وجه ربه ، عن ست وسبعين سنة . وانطفأت بوفاته سرجُ مصابيح حياة وثابة ، مليئة بالنشاط ، والمؤلفات . وسارت القاهرة في وداعه : العامة ، والعلماء ، والقضاة ، والأمراء .

وَدُفِنَ جُثْمَانُ الْمِفْكَرِ الْعَظِيمِ بِمَقَابِرِ الصُّوفِيَّةِ ، خَارِجَ بَابِ
النَّصْرِ ، فِي اتِّجَاهِ حَيِّ الرِّيدَانِيَّةِ (الْعَبَّاسِيَّةِ) .

وَفِي عَامِ أَلْفٍ وَتِسْعِمَائَةٍ وَوَاحِدٍ وَسِتِينَ مِيلَادِيَّةٍ ، أَقَامَ
« مَرْكَزُ الْبُحُوثِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ » بِالْقَاهِرَةِ . مِهْرَجَانًا عِلْمِيًّا لِدُكْرَى
« ابْنِ خَلْدُونِ » شَارَكَ فِيهِ عِلْمَاءٌ مِنْ تِسْعِ دُولٍ عَرَبِيَّةٍ وَأَجْنِبِيَّةٍ .

وَفِي مَيْدَانِ النَّبَاتِ ، بِمَدِينَةِ الْأَوْقَافِ بِالْقَاهِرَةِ ، أُقِيمَ تُمْنَالُ
لَا بِنِ تَخْلُدُونِ ، أَمَامَ هَذَا الْمَرْكَزِ نَفْسِهِ ، وَتَخْلِيدًا لِذِكْرِهِ ، غَيَّرَتْ
مِصْرُ اسْمَ « مَيْدَانِ النَّبَاتِ » إِلَى « مَيْدَانِ ابْنِ خَلْدُونِ » ، فَمَا
أَكْثَرَ نَبَاتَاتِ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي زَرَعَهَا لَنَا فِي حَيَاتِهِ « ابْنُ خَلْدُونِ » ،
عَنْ حَضَارَةِ الْإِنْسَانِ ، وَمُجْتَمَعَاتِ الْبَشَرِ .

وَفِي « تُونِس » لَا يَزَالُ بَيْتُ « آلِ خَلْدُونِ » قَائِمًا ، تَشْغُلُهُ
إِلَى الْيَوْمِ مَدْرَسَةٌ لِلدِّرَاسَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْعُلْيَا ، وَعَلَى الْبَيْتِ لَا فِتَّةٌ
تَحْمِلُ اسْمَ « ابْنِ خَلْدُونِ » .

وَفِي شَارِعِ كَبِيرِ بَتُونِس ، يَرَى الزَّائِرُونَ تُمْنَالًا ضَخْمًا لِابْنِ
خَلْدُونِ ، تَخْلِيدًا لِذِكْرِهِ بَيْنَ الْأَجْيَالِ .

ابن خلدون

أبو علم الاجتماع وفلسفة التاريخ - عاش في القرن الرابع عشر الميلادي . وتنقل بين دول الشمال الأفريقي والشام والأندلس . عمل وزيراً وسفيراً وقاضى قضاءً وشيخاً للصوفية وعالم حديث . كتب رسالة في المنطق وشرح آراء ابن رشد وألف موسوعة تاريخية ، كتب لها مقدمة خالدة

عرفت باسمه ، فسرفيها نشوء
ال عمران وتطور الاقتصاد والحضارة
ورقى الأمم بالوقائع والمنطق
والبراهين . وسبق ابن خلدون
بهذه المقدمة علماء الاجتماع
بأربعة قرون . إنها قصة تشير
الفخار ، يفرؤها الصغار والكبار

صدر من هذه السلسلة :

- | | |
|------------------|----------------|
| ١ - ابن النفيس | ١٠ - الإدريسي |
| ٢ - ابن الهيثم | ١١ - الدميري |
| ٣ - البيروني | ١٢ - ابن رشد |
| ٤ - جابر بن حيان | ١٣ - ابن ماجد |
| ٥ - ابن البيطار | ١٤ - القزويني |
| ٦ - ابن بطوطة | ١٥ - ابن يونس |
| ٧ - ابن سينا | ١٦ - الخازن |
| ٨ - الفارابي | ١٧ - الجاحظ |
| ٩ - الخوارزمي | ١٨ - ابن خلدون |

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع في الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر